بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

« صدق الله العظيم »

[الرُّوم : الآية ٢١]

كلامنا كثير عن المرأة ومركزها فى التنظيم الاجتماعى الإسلامى وكلامنا عن حقوق المرأة فى شريعة الإسلام أكثر ، وقبل أن أكتب هذه السطور قرأت كل ما وقع تحت يدى من كلام المفسرين سابقين ولاحقين ، فأما السابقون من أهل العلم بالقرآن وتفسيره عندنا ، فكلهم كانوا أبناء عصورهم فى هذه الناحية والعصور الماضية كلها كانت عصوراً ظالمة للضعفاء قاسية على من لا يستطيع أن يحمى نفسه وحقوقه ، ولهذا فلا فرق بين العالم والجاهل فيما يتعلق بالنظر إلى المرأة ومعاملتها حتى حقوقها التى منحها الله إياها فى القرآن الكريم أكلوها واعتدوا عليها ، ومازال الكثيرون منهم على هذه الحال إلى أيامنا هذه ، وقد حضرت من سنوات طويلة كثيراً من جلسات المحاكم الشرعية ، ورأيت من صور الظلم للمرأة والاحتقار لها مالم أتصور قط صدوره عن رجل صحيح الإسلام يعرف أن الإسلام هو دين العدل والرحمة والإنسانية .

حتى مفكرون وكتاب كالجاحظ وأبى حيان التوحيدى لا تجد للمرأة عندهم مكاناً يفضل مكان الخادمة الأجيرة اللهم إلا إذا كانت أما فهى تحترم فى هذه الحالة للأمومة لا لمكانها ، وقد عرفنا فى تاريخنا نساء فرضن احترامهن على الرجال وهؤلاء يخرجن من الحساب لأنهن كن جميلات جداً ، ورجالنا فى الماضى كانوا ضعفاء أمام المرأة الجميلة ، فى سبيلها قتل الرجال الرجال وقامت حروب ، ولكن حتى فى هذه الحالة نجد أن الرجل إذا حصل على المرأة ونال إربه منها تركها جانباً وانصرف عنها ، بل ربما كان جمالها مصيبة عليها فهو يثير حسد الأخريات ويدفعهن إلى السعى فى أذاها .

وفى كتاب بدائع الزهور لابن إياس حكاية امرأة جميلة اشتريت جارية من بلاد القوقاز وعرضت للبيع فى دمشق ، وتنافس فيها عدد من علية القوم ، ووصل الأمر إلى القاضى ليفصل فى القضية ، واجتمع المتنافسون فى حضرة القاضى ، فنهض واحد منهم وضرب الجارية بالسيف فقتلها وقال : هاهى ذى ليأخذها من يريد ، وريع الناس لما حدث ولكن القاتل ـ وكان من أبناء كبار القادة المماليك ـ طلب من الخادم أن يصب له الماء على سيفه ليغسله قبل أن يضعه فى قرابه ويخرج ، وصاح التاجر صاحب الجارية : ياسيدنا القاضى ألا تحاسبه ؟ فقال القاضى بعد أن استعاد روع نفسه : أحمد الله على أنه لم يقتلنى ويقتلك ، فهذا مجنون ابن مجنون ، ولنحمد الله على أن المسألة انتهت بقتل امرأة لا روح لها ! .

وهذه الأفكار تخطر ببالى عندما أقرأ آيات الله سبحانه التى تراها فى رأس هذا الفصل ، فهى إذا تدبرتها وقلبت معانيها رأيت أنه تضم فعلاً آيات من الحكمة الآلهية فى شأن الزواج والحياة الزوجية ، فإن الزواج الإسلامى فى أساسه محبة ورحمة ومودة بين الرجل والمرأة ، لا يمكن أن يكون أن يكون هناك زواج سعيد يملأ القلب بهجة والنفس أمنا إلا بهذه المودة والرحمة ، وهنا ترى كيف أن

عامة الناس عندما لا يفهمون الزواج ولا يشعرون بهذه الناحية الروحية فيه ، ويعتبرونه مسألة مصلحة أو منفعة ، وفيما مضى كان الأباء هم الذين يزوجون البنات ، وكانوا يرغمونهن على قبول الزوج الذى يختارونه وكلمتهم المشهورة : إننى أبوها وأعرف بمصلحتها ، ويغيب عنهم أن الزواج ليس كله مصلحة ، حقاً إن المصلحة جزء منه ولا يمكن إهمالها ولكنه قبل كل شيء مودة ورحمة وسكن ، وإذا لم يجد الرجل فى زوجه السكن الآمن الذى تستريح إليه نفسه فلماذا يتزوج ؟ ثم إن عقد الزواج أيا كانت طريقة إتمامه هو فى النهاية عقد بين ازوج والزوجة دون غيرهما ، وفى سورة النساء آيات بينات عن بعض جوانب الزواج أحب أن آتيك بها لتقترب من معنى الزواج وروحه فى الإسلام :

﴿ يَـأَيُّهَا الـذِين آمَنُـوا لاَ يحل لكـم أن تَـرِثُـوا النِسَـاء كـرهـاً ولا تَعضُلُوهُـن لتذهَبُوا ببَعـض ما آتيتُموهـن إلا أن ياتِينَ بفَاحشـةٍ مبينةٍ وعَاشرُوهُن بالمعـروفِ فإن كرِهتُمُوهُن فعَسى أن تكَـرَهُوا شيئاً ويجعل الله فِيهِ خَيراً كثِيراً . وإن أرَدتم استِبدال زَوج مكَان زَوج وآتيتم إحدَاهُن قِنطـاراً فلا تأخُـذوا مِنهُ شَيئـاً أتاخُـذُونَهُ بهتَـاناً وإثماً مبينـاً . وكيف تاخذُونه وقَد أفضَى بعضُكم إلى بعضٍ وأخذن مِنكُم مِيثاقاً غليظاً ﴾ .

[النساء ٤/ ١٩ ـ ٢١].

ولو أنك تأملت هذه الآيات لرأيت أننا ـ نحن المسلمين جميعاً ـ نخالفها فى زيجاتنا . فإن المرأة هى الجانب الضعيف فى المجتمع الإسلامى . إنها الجانب المظلوم الذى يحمل عبء المجتمع ولا يكاد يفوز إلا بالجانب الأقل من خيره ، وأصحابنا الذين صاغوا قانون الأحوال الشخصية الصادر سنة ١٩٢٩ نسوا تماماً أنهم يشرعون لزواج إسلامى يقوم على الرحمة والمودة ، وإلى حين قريب كان القاضى الشرعى يقول وهو على منصة القضاء : إن الشريعة شيء وقانون

الأحوال الشخصية شيء .

وكانت عندنا من سنوات طويلة طاهية زوجوها من رجل عتل يعضلها ويثقل عليها ويذهب بمعظم ما تكسبه ولكراهتها فيه لم تنجب منه ، ولكنه كان يمسك به طمعاً فى مالها فشجعناها على رفع قضية طلب الطلاق بسبب الضرر والقاضى رفض الطلاق ، دون مناقشة وقال له المحامى : يامولانا أنت تقتل المرأة بهذه الصورة فإنك لا تعرف مقدار تعاستها معه ، فكان رد القاضى وهو ينتقل فى سأم إلى القضية التالية : لو كان هذا الرجل قادراً على الكسب لأنفق على امرأته ، أما وهى تكسب فلتنفق هى عليه أم أنك تريد أن تعيش المرأة ويموت الرجل ؟ واستأنفنا الحكم وأتينا بمحام إنسان يفهمنا ونفهمه فاستطاع الحصول على الطلاق لا بسبب الضرر أو سوء المعاملة بل على أساس أن الرجل عاقر لا ينجب وكانت الزوجة فى السادسة والعشرين عندما طلقت ، وبعد سنتين من الطلاق زوجناها فتى نجاراً اختارته بنفسها فسعدت معه أعظم سعادة وأهدته ذكوراً ثلاثة وبنتاً .

وأنا عندما أفكر فى موضوع الزواج والحياة الزوجية فى مجتمعنا الإسلامى إنما يتجه ذهنى فى الغالب نحو الفقراء وهم غالبية المسلمين ، وهنا تجد الزواج يخرج عن حدوده الإسلامية فعلاً ، وتتحول الزوجة إلى خادمة لزوجها ومنجبة لأطفاله وفى هذه الأوساط لا مكان للسعادة أو السكن أو الرحمة أو المودة ، وقد درجوا على ذلك وعاشوا فيه ولم يعودوا يشعرون بما يفوتهم من جمال الدنيا عندما يفوتهم الزواج الإسلامى القائم على الرحمة والمودة .

ونعود إلى آيات سورة النساء لنرى ما فيها من أسرار السعادة فى الحياة الزوجية ، ولنرى أيضاً كيف أن غالبيتنا العظمى لا تكاد تلتفت إليها ، ففى الآية الأولى نرى كيف أن الله سبحانه يحرم علينا أن نستعمل قوتنا لكى نتغلب

على النساء وهن المستضعفات فى مجتمعنا ، وأذكر بهذه المناسبة أن هناك جماعات كثيرة من المسلمين فى كل بلاد الإسلام لا تورث النسوة وتحرمهن من حقهن الشرعى فى الميراث بحجة أن المرأة تتزوج أجنبياً عن الأسرة فإذا هم أعطوها نصيبها من الميراث ، خرج جزء من ثروة الأسرة إلى رجل غريب أو أسرة غريبة ، وهذا الفريق من الناس ينسى أن الله سبحانه حرم هذا وقال إنه لا يحل ، ولكن بُعْدَ الكثيرين منا عن روح الإسلام يصل بهم إلى مقارفة ما حرم الله فى سبيل ما يسمونه بثروة الأسرة ، وقد حضرت ذات مرة مناقشة بين رجل من صعيد مصر ينتسب إلى أسرة تجرى على هذا المذهب ، وكان يناقش الشيخ مصطفى عبد الرازق وكان آل عبد الرزق أسرة مستنيرة تعرف الله والإسلام ولهذا فقد كانت تورث النساء ولا تقارف هذا الإثم العظيم .

ومن غريب ماسمعت من رأى المنادى بحرمان النساء من الميراث قوله إن النساء أنفسهن يرضين عن ذلك ولا يكرهنه ، فقال له الشيخ مصطفى بصوته الهادىء الرصين : صدقنى يا فلان لا توجد امرأة واحدة فى الدنيا ترضى أن يؤخذ منها ميراثها وحقها ، ولكنكم قساة غلاظ الأكباد تفعلون هذا الباطل وغيره وتقولون إنه الحق أو أن النساء يردنه لأنهن لا يحببن أن يصير مال الأسرة إلى غريب .

ثم يحرم الله عضل النساء لإكراههن على التنازل للرجال عما أعطوهن إياه من المهور أو الهدايا ، وهذا أيضاً يمارسه الكثيرون منا إلى يومنا هذا ابتزازاً للنساء وعدواناً عليهن ، وقد عرفنا رجالاً كثيرين تصل بهم الخسة إلى مطالبة النساء بالمال فى مقابل الطلاق عندما تستحيل الحياة الزوجية بين الاثنين ، وأكثر من مرة سمعنا عن رجل طلب خمسة آلاف أو حتى عشرة لكى يطلق امرأة لا يحبها ولا تحبه ، ويصر على تركها كالمعلقة فلا هى متزوجة ولا هى مطلقة وهذا أيضاً حرمه الله فى آيات أخرى من سورة النساء قال سبحانه :

﴿ وإن امرأةٌ خَافتْ من بعلها نشُوزاً أو إعراضاً فَلا جُناح عليهما أن يُصْلِحَـا بينهما صُلحـاً والصُلحُ خيرٌ وأحضِرتِ الأنفُسُ الشح وإن تحسِنُوا وتتقُوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً . ولن تستطيعُوا أن تعدِلوا بَين النِساءِ ولو حَرَصْتم فلا تَميلوا كُل الميلِ فتَذروها كالمُعلقة وإن تُصْلحُوا وتتقوا فإن الله كان غفُوراً رحِيماً . وإن يتَفرقا يغْنِ الله كُلا من سَعَتهِ وكان الله واسعاً حكِيماً ﴾ [النساء ٤/ ١٢٨ ـ ١٣٠].

وهنا كذلك نرى من جوانب الحكمة الإلهية فى تنظيم العلاقات بين الرجل والمرأة ما يدلنا بالبرهان الساطع على أن هذا التنظيم الإسلامى هو خير تنظيم إذا أدركه الإنسان على وجهه وطبقه عن ثقة فى أنه يضم كل جانب الخير لنا لو أننا نطبقه حق التطبيق ، فهنا نجد أن الله يعطى امرأة التى تخاف إعراض زوجها أو فقدان الحق فى أن تسعى إلى الصلح إما بأن تناقش الأمر مع زوجها إذا توسمت فيه العقل والعدالة ، وإما عن طريق بعض أقاربها لأن الصلح خير ، وقد يتخاصم الزوجان وتبعد الشقة بينهما حتى يظنا أن سبل عودة الوئام قد تقطعت جميعاً فإذا جلس الزوجان وناقشا خلافهما فى روية وحكمة تبين لهما أن الأمر أهون مما يظنان ، وهنا يذكرنا الله بأن نفوس الناس شحيحة بالخير ضنينة بما تملك وهذا جزء من طبائع المخلوقات ، ولكنه لا ينبغى أن يكون جزءا من أخلاق المؤمنين فنفس المؤمن لا ينبغى أن تكون أسيرة الأنانية والشح والبخل فيما يتعلق بعلاقات الإنسان مع أهله ، لأن امرأة الإنسان هى نفسه أو ينبغى أو تكون كذلك ، ثم توجه الآيات النصيحة بعد ذلك للرجال لأنهم هم الأقوى والأغلب فيقول لهم الله سبحانه إنهم لو أحسنوا وتفضلوا وأعطوا عن تقى ومحبة فى الله سبحانه فإن الله يعلمه ولا ينساه لصاحبه ، وليس أبغض إلى الله سبحانه من المسلم الأنانى المتمسك بقشور الحياة بكسبها ويفسد بذلك حياته الزوجية وهى ركن السعادة فى هذه الدنيا ، ثم يؤكد الله للرجال وهو خالقهم وأعلم بأحوالهم

أنهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النساء ولو حرصوا على ذلك ، لأن الحقوق المادية هى أهون الحقوق على المرأة ، وإذا هى ضمنت حب زوجها وإعزازه إياها .

وقد عرفت فى بعض البلاد العربية رجلاً واسع الثراء متزوجاً من أربع نساء وكان شديد الاجتهاد فى المساواة بينهن فى كل ما يعطى حتى ألوان السيارات كانت واحدة ولكنه كان مع ذلك بعيداً كل البعد عن السعادة وما نظرت إليه مرة وهو شارد بأفكاره عنى وعن الناس إلا وجدت غمامة أشبه بالسحابة السوداء تظلل وجهه ، وكنت أحاذر ألا أسأله عن شأنه ولكنه فى ذات مرة قال عندما عاد إلى نفسه ألا لعنة الله على الإكثار من النساء كلهن فى النهاية واحدة والواحدة أفضل فقلت له هذا ياأخى مذهبى وأحسب أنه مذهب الإسلام لمن ينشد السعادة الزوجية ، أما طالب المتاع الذى يحسب أن زوج الاثنتين أو الثلاث يجد مالا يجده المقتصر على الواحدة فهو واهم .

ثم يأمرنا الله سبحانه بألا نميل عن زوجة كل الميل وندعها مربوطة بنا بخيط هالك فهذا ظلم للمرأة بين ، فإذا استحالت الحياة بينهما ، وانقطعت سبل الإصلاح فلا معنى للإمساك بالمرأة على رغمها وليكن الطلاق البغيض ففيه تحرير لنفسين من إسار زواج ظالم ، والله سبحانه ييسر لكل منهما سبيلاً للسعادة من عنده وهو سبحانه كريم واسع الأرزاق حكيم .

وفى الآيات الأولى التى استشهدنا بها فى هذه الدراسة عن الزواج والأسرة فى الإسلام نقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ وإن أردتمُ استِبدالَ زوجٍ مكَان زوجٍ وآتيتُم إحداهُن قِنطاراً فلا تأخُذوا مِنه شيئاً أتأخذونه بُهتاناً وإثما مبينا وكيف تأخذُونه وقد أفضَى بعضُكم إلى بعضٍ وأخذن مِنكُم مِيثاقاً غليظاً ﴾ .

وفى هذه الكلمات القرآنية الحكيمة من الموعظة الحسنة مالا يتفطن إليه إلا القليلون منا ، وفى معظم كتب التفسير تقرأ أنه كان من عادة الجاهليين إذا أرادوا طلاق امرأة لم يطلقوا سراحها إلا بعد أن تعيد إليهم كل ما قدموه لها من مهر وهدية قبل الزواج ، فجاءت هذه الآيات لتوقف هذا الظلم البين ، وأنا عندما أقرأ مثل هذا الكلام يملكنى العجب لإصرار الكثيرين على أن هذه الأعمال تقتصر على الجاهلية وأهلها مع أنها تصدر عن كل إنسان قاسى القلب عديم الإحساس ، وإلى أيامنا هذه مازال بيننا ناس يبغضون زوجاتهم ويتمنون الخلاص منهن ولكنهم يطلبون منهن مالاً فى سبيل إخلاء سبيلهن ، والنساء فى أحيان كثيرة يجدن أنفسهن مضطرات إلى الخضوع ، لأنهن لا يستطعن الزواج أو التصرف فى حياتهن مادمن على ذمة رجال أما الرجل فلا يضيره أن تظل الزوجة المكروهة فى عصمته ، لأن ذلك لا يمنعه من الزواج والتصرف كيف يشاء ، وهذا وجه من وجوه سوء استعمال الرخصة التى أباحها الشرع للرجال فى أن يتزوجوا الاثنتين والثلاث ، وقد أباح الشرع ذلك تيسيراً لشئون الحياة ، فإن الرجل قد يجد امرأته عقيماً أو مريضة أو غير قادرة على القيام بمسئوليتها ، وبدلاً من أن يكون الحل الوحيد أمامه هو التخلص من تلك الزوجة للزواج بأخرى أبيح له أن يحتفظ بالزوجة الأولى والتزوج عليها ، وفى هذه الحالة تكون الزوجات الأوليات شاكرات للشرع الحنيف الذى يسر لهن البقاء زوجات على ذمة رجال يتولون شئونهن .

المهم أن القرآن يحرم على الرجال استخدام الرخصة التى منحهم الله إياها فى استرجاع ما سبق أن قدموه إلى الزوجات ، والقرآن ينكر ذلك يقول : ﴿ **وكيف تأخُذُونهُ وقد أفضى بعضُكم إلى بعضٍ وأخذن مِنكم مِيثاقاً غليظاً** ﴾ .

والمسألة الأولى هنا هى مسألة إفضاء الرجل والمرأة بعضهما إلى بعض بعد الزواج ، والكثيرون منا لا يدركون أن المرأة إذا تزوجت وأفضت بنفسها لزوجها

فهى فى الحقيقة تقدم له أغلى ما فى كيانها ، لأن جسد المرأة هو سرها وقوتها وهى عندما تتزوج وترتبط برجل فهى تقدم كل ما عندها بذلك وانفصام عقد الزواج بعد ذلك يصيبها بخسارة كبرى ، وإذا لم تكن من ذوات الجمال الفائق الذى يتهافت عليه الرجال أو من بنات البيوت الكبيرة أو الغنية التى لا يعسر عليها العثور على زوج آخر قلما تتزوج بل إن مجتمع الرجال الذى نعيش فيه وتحكمنا عقليته يهبط بالمطلقة درجات لمجرد أنها مطلقة .

ولهذا فإن الإسلام أبغض الطلاق مع إباحته إياه ، فهو فى بعض الحالات القليلة حل لزيجات مستعصية .

ولكن ذلك فى الحقيقة قليل جداً والأساس فى الزواج هو الدوام مدى الحياة والمرأة تتزوج على هذا الأساس ، والزواج هو وظيفتها الأساسية فى الوجود ، ولهذا فإن الطلاق بالنسبة للمرأة ليس مجرد انفصام العقد مع رجل ، بل هو فى الحقيقة ضربة تزلزل كيان المرأة وتصيبها بأشد الأضرار . ولهذا فإن المرأة نادراً ما تطلب الطلاق وهى أحرص ما تكون على أن تنجح حياتها الزوجية وتنجب وتنشىء الأسرة وإنشاء الأسرة وتربية الأولاد هو تحقيق وجود المرأة كله .

ولهذا فإن القرآن يسمى عقد الزواج بالميثاق الغليظ ، والإسلام كما سبق أن ذكرنا يقوم كله على مواثيق ، فأنت فى الإسلام لا تعطى شيئاً إلا كان لك مقابله وقد سبق أن أتينا بالآيات التى تقول إن الدخول فى الإسلام إنما هو أشبه بالدخول فى صفقة تجارية يجنى الإنسان منها كل خير وفى سورة التوبة نقرأ : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون . وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به . وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ [التوبة ٩/ ١١١] .

فـالإيمان كما سترى صفقة فـإن الحق سبحانـه يعطى المؤمن الجنـة والمؤمن يعطى مالـه ونفسه فى سبيل الله وليس هناك أوفى من الحق سبحانـه ، والإنسان فى دخوله الدين يفوز الفوز العظيـم ، وهذا حق فى الإسلام واليهودية والنصرانية وقد سبق أن استشهدنا بهذه الآيات العظيمة فى قولنا إن الجهاد فى سبيل الله فرض عين لا فرض كفاية .

وميثاق الإنسان مع الله سبحانه عندما يـدخل فى الدين هو جزء ـ أو نتيجة للميثاق الذى عقده الله مع النبيين ، والميثاق الأول هو ميثاق الله سبحانه مع بنى إسرائيل حينما أنزلت عليهـم التوراة . وكل نبى بينه وبين الله ميثـاق وهو تـوكيد للميثاق الـذى عقده الله سبحـانه وتعالى مـع نوح عليه السـلام عندمـا عهد الله سبحانه إليه فى تجديد الخلق وأمره بإنشاء الفلك وهو ميثاق نجاة وخير وهو نفس الميثاق الذى عقده الله سبحانه مع النصارى جاء فى سورة المائدة : **﴿ ومن الذين قالوا إنَّا نصَارى أخَذنا مِيثاقهم فنسُوا حَظا مِما ذُكرُوا بهِ فَاغرينا بينهُمُ العَـداوةَ والبَغضـاء إلى يـومِ القِيـامـةِ وسـوف يُنبئُهُم الله بِما كـانُـوا يصنعُون ﴾** [٥/ ١٤] .

ونفس الميثاق عقده الله سبحانه مع رسـولنا صلوات الله عليه جاء فى سورة الأحزاب : **﴿ و إذ أخـذنا مِن النبيين ميثـاقهُم ومِنك ومن نُوحٍ و إبـراهِيم ومُوسَى وعيسى ابنِ مريَم وأخَذنا منهُم مِيثاقاً غليظاً ﴾** .

[الأحزاب ٣٣/ ٧] .

وهذا هو الميثاق الأعظم بين الله والإنسان إنه عروة الله الوثقى وحبله المتين ، ولهذا وصفه الله بالميثاق الغليظ .

وكما وصف الله سبحانـه ميثاقه العظيم مع الأنبيـاء وأهل الإيمان الصادقين

بأنه ميثاق غليظ فكذلك وصف عقد الزواج بأنه ميثاق غليظ ﴿ **وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً** ﴾ وهنا موضع حكمة ربانية عالية أرجو أن يتنبه لها القارىء الكريم حتى يتبين جلال الزواج فى الإسلام ، فإن الزواج فى الحقيقة ليس مجرد اتفاق بين رجل وامرأة ، وإنما هو فى الحقيقة اتفاق وموثق بين الإنسان والمجتمع فإذا كان ميثاق الإيمان المعقود بين الله سبحانه وأنبيائه والمؤمنين هو أساس عمران الكون فإن ميثاق الزواج هو أساس عمران المجتمع كله وتلك هى الأهمية الكبرى للزواج فى الإسلام .

ومن أسف أن جماعات المسلمين لم تعط عقد الزواج مكانه الحقيق به فمازال عقد الزواج عندنا مجرد عرض وقبول خال من أى التزامات ، حقيقة إن هذه الالتزامات موجودة وهى مبينة فى وثيقة الزواج ولكن عامة الناس عندنا لا يعرفون فى الحقيقة القدر الجليل للعقد الذى يدخلون فيه عندما يتزوجون وغالبيتهم يهتمون بماديات الزواج من مهر وهدايا أكثر من اهتمامهم بروحانياته ، ومعظمهم لا يذكرون أن أهم شىء فى الزواج هو ناحيته الروحية ، أى ذلك الرباط المقدس الذى يربط بين الرجل والمرأة ، وأنا أرى أنهم فى بلاد الغرب قد أعطوا الزواج وعقده من الأهمية أضعاف ما نعطى نحن . فان المسألة عندنا تتم وكأنها أقل شىء أهمية فى الحياة ، وأنت عندما تشترى أى شىء له قيمة مثل الدراجة النارية ، فأنت والبائع تذهبان معاً إلى مكتب الشهر العقارى لكى تسجلاً تلك الصفقة الصغيرة ، أما إذا أردت الزواج فأنت تستقدم الدولة كلها ممثلة فى شخص المأذون لكى يعقد لك عقد زواجك وأنت مرتاح فى بيتك ، وهذا فى رأيى لا يليق ، وقد آن أن نعطى عقد الزواج من المهابة والجلال ما هو جدير به فلابد أن يتم العقد فى مكتب محترم تقيمه الدولة فى كل حى للزواج وكل ما يتصل به من شئون ولابد أن يكون هذا المكتب مهيباً محترماً فيه كل وثائق زواج الحى .

والمأذون ينبغى أن يتوقف عن السعى إلى بيوت الناس حاملاً دفتره تحت إبطه حتى يعقد لهم زيجتهم ثم يعطونه مافيه القسمة ، وقد ابتذلت هذه الصورة وساء استعمالها حتى أصبح منظر المأذون وهو داخل بيت العرس منظرا يخلو من الاحترام والمهابة ، وهذه هى صورة المأذون وعقد الزواج فى الكثير من الأفلام والمسلسلات التى نراها ، فهل هذا والله يليق بمقام هذا الميثاق الذى يصفه الله سبحانه بأنه موثق غليظ مثله فى ذلك مثل موثق الإيمان ؟ .

إننى أراهم فى الغرب أحكم منا وأقرب إلى الشعور بمسئولية الزواج وقدره ، فهناك مكاتب زواج رسمية معتمدة مهيبة وموثق الزواج وهو المأذون عندنا موظف محترم جداً يعقد الزواج فى مكتبه بحضور الشهود ، وأنا لا أشير هنا إلى الزواج بعد ذلك فى مكتب خاص فى الكنيسة وهو عندنا يخرج مع العروسين إلى ساحة الكنيسة لشهر العقد يلقى كلاماً قصيراً يبين فيه أهمية العقد والتزامات الزوجين فيه فما دام قد ارتضيا الزواج فينبغى أن يعلما أمام الناس جميعاً أنه عقد مقدس بين رجل وامرأة يدوم حتى يفرق بينهما الموت ، وهذا لا يمنع من الطلاق فيما بعد إذا استحالت الحياة الزوجية ، ولكن الأساس فى أى زواج جاد هو أن يكون لمدى الحياة ثم يعلن القس للزوجين أنه ارتباط على الحلوة والمرة لا يفصمه مرض ولا فقر ولا حاجة ولا أى عامل من عوامل الحياة ، وكلا الزوجين يتعهد بالوفاء والإخلاص والأمانة والحرص على سلامة الزواج ، ومثل هذه الطريقة فى عقد الزواج تعطيه الأهمية الاجتماعية التى ينبغى أن تكون له ، أما طريقتنا فتنقصها القيمة والمهابة ، ومعظم الذين يتزوجون من عوام الناس يعتقدون أن عقد الزواج هو عقد بين سيد وجارية ، فهو سينفق عليه ويستمتع بها وهى ستخدمه وتطيعه وتمنحه الأولاد ، وهذه القيمة القليلة التى لعقد الزواج عند هؤلاء الناس هى التى تهون عليهم الطلاق ، فإن كلمة الطلاق على ألسنتهم من

الصباح إلى المساء ولا توجد زوجة من هؤلاء إلا وهى تتوقع الطلاق من سيدها الذى اشتراها فى كل حين .

الزواج موثق غليظ يعقده الرجل والمرأة معاً على الحب أولاً ثم الإخلاص والتفانى والاشتراك فى حلو الحياة ومرها حتى يفرق بينهما الموت ، هكذا ينبغى أن ندخل فيه ونعيشه حتى نعرف قدره العظيم ومقدار ما يضفيه على حياتنا من رحمة ومودة وسكن للنفس والروح .

***